تجليات البينية في الرواية التاريخية، رواية "الديوان الإسبرطي" أنموذجا

The Manifestations of Interdisciplinarity in the Historical Novel, The Novel of the Spartan Diwan as a Model.

طالبة الدكتوراه: سكينة عبد المالك
الأستاذ الدكتور: بن مالك سيدي محمد

قسم اللغة العربية وآدابها المركز الجامعي مغنية–ولاية تلمسان

مخبر انتماء طالب الدكتوراه: الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان .

souskaabd@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/04/15 تاريخ القبول: 2023/07/30 تاريخ النشر : 2023/12/05

ملخص:

لقد توسع الوعي بأن البينية ليست ترفا معرفيا إنما صارت حاجة مؤكدة يقتضيها البحث وخاصة في الموضوعات المركبة والمعقدة، والبينية هي تضايف يحدث بين مكونين أو أكثر، بحيث يكون كل مكون منهما منتميا إلى علم من العلوم، لذلك تسلط هذه الدراسة الضوء على الأدب وليس أفضل منه كمثال لانفتاحه على كثير من الحقول المعرفية الإنسانية، وخاصة الرواية؛ إذ ليست الرواية سليلة للملحمة التي ربطتها بفترة معينة من تاريخ المجتمعات إنما هي حاوية للثقافات الإنسانية كلها كما جاء في فكر باختين، وخاصة الحوارية التي تجعل من الرواية ساحة لكل أصوات هذا العالم المعقد، بما في ذلك الأدبي وغير الأدبي والعلوم وتهدف هذه الدراسة أيضا إلى استجلاء العلاقة بين الرواية و التاريخ في الرواية التاريخية، فتجعله منطلقا للكتابة التخييلية. وقد توصلنا في الجزء الأول إلى أن تجليات البينية في الرواية التاريخية تظهر في أنماطها المتنوعة. أما في الجزء التطبيقي فقد حللنا كيف زاوج عبدالوهاب

عيساوي بين الوثيقة والتخييل لتندرج بذلك روايته "الديوان الإسبرطي" ضمن رواية التخييل التاريخي.

الكلمات المفتاحية: البينية؛ التاريخ؛ الرواية؛ الرواية التاريخية؛ التخييل التاريخي.

Abstract:

The awareness has expanded about interdisciplinarity which is not a cognitive luxury, as it became an affirmed need, required by research Interdisciplinarity is the interconnection that occurs between two or more components, in a such way that makes each one of them belong to a science. That is why this study focuses on literature, especially the novel, it container for all the human cultures, as cited in Bakhtine's thoughts, especially the dialogic one, which makes the novel a field for all the sounds of this complicated world.. The study also aims to clarify in which the novel correlates with history to make it a basis for fictional writing. We have concluded that the manifestations of the Interdisciplinarity appear in the patterns of the historical novel and that the "EsparteanDiwan" is part of the historical imagination novel.

key words: Interdisciplinarity; History; Novel;Historical Novel; Historical imagination.

مقدمة :

يقول أي أم فورستر في صدد تعريفه للرواية: "الرواية كتلة هائلة عديمة الشكل إلى حد بعيد... إنها بكل وضوح تلك المنطقة الأكثر رطوبة في الأدب"[1]. هكذا ارتأينا البدء في دراستنا هذه، وذلك لأن تعريف الرواية ليس بالأمر الهين، وإلى ذلك أشار الدكتور عبد المالك مرتاض قائلا : "والحق أننا بدون خجل ولا تردد نبادر إلى الرد عن السؤال بعدم القدرة على الإجابة "[2]، فما هي الرواية؟

تعد الرواية جنسا أدبيا يشترك مع " الأجناس الأدبية الأخرى بمقدار ما تستميز عنها بخصائصها الحميمة، وأشكالها الصميمة. أما بالقياس إلى اشتراكها مع الحكاية والأسطورة، فلأن الرواية تغترف بشيء من النهم والجشع من هذين الجنسين الأدبيين العريقين وذلك أن الرواية الجديدة، أو الرواية المعاصرة بوجه عام لا تلفي أي غضاضة في أن تغني نصها السردي بالمأثورات الشعبية والمظاهر الأسطورية والملحمية جميعا"[3].

إن الرواية نص يحاكي كل النصوص، وبنية تدمج فيها كل الأنواع الأدبية والخارج أدبية، وذلك ما يؤكد عليه باختين. وقد ذهب الفيلسوف الوجودي جون بول سارتر إلى أن"الرواية يجب أن تؤرخ"[4] عبر اهتمامها بعكس اللحظات التي نحيا فيها من أفراح وأقراح في واقعنا،

"وأيا كان فإن الروائي لا يكتب تاريخا وما ينبغي له، وإنما تراه يلحم جهده شيئا يحمل طابع التاريخية الروائية، ذلك بأن الإبداع الروائي إنما ينهض على فكرة من التاريخ يشيء باد من الضرورة، ويتمثل حتما مظهرا من مظاهر البناء الذي بمقتضاه نستطيع قراءة ما يحدث للكائنات والأشياء والأفكار"[5]. ومن خلال هذه العلاقة البينية بين الرواية والتاريخ، ظهرت الرواية التاريخية الغربية بصعود علم التاريخ مع روايات والتر سكوت، ثم تلتها روايات أخرى غربية وعربية. ولكن، ماذا تروم الرواية التاريخية من خلال علاقة التماس بالماضي، هل تريد إنتاجه مجددا وإحياء الذاكرة الجماعية؟ أم هل تريد فضح ما سكت عنه التاريخ ومساءلته؟ إلى أي مدى يصدق الروائي في صياغته لهذا التاريخ؟ ما هي حدود الرواية وما هي حدود التاريخ؟ ولكن، قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لابد لنا من تقديم مفهوم للدراسات البينية، ثم نكتشف معا العلاقة بين الرواية والتاريخ وكيفية توظيفه في الرواية التاريخية المعاصرة.

1- مفهوم الدراسات البينية وتاريخها في الدراسات الإنسانية:

الدراسات البينية INTERDISCIPLINARY هي بحوث علمية معمقة لا يقنع أصحابها بالاكتفاء بالتخصص الدقيق منفردا، بل يتوخون الكشف عن مناطق التخوم: التجاور، التقاطع، التشابك، التقارب بين العلوم، وهي دراسات تجمع بين النظرة التخصصية الدقيقة، والنظرة الموسوعية الشاملة، وتؤمن بالتكامل المعرفي بين كافة العلوم وترى أن هذا التكامل بات ضرورة من ضرورات المنهج العلمي النافع في هذا العصر.

تتكون كلمة «البينية Interdisciplinary » من مقطعين أساسيين؛ مقطع «Inter » وتعني «بين»، وكلمة «discipline» وتعني مجال دراسي معين. ومن هذا المنطلق، يُعرّف "كلاين ووليم " الدراسات البينية على أنها "دراسات تعتمد على حقلين أو أكثر من حقول المعرفة الرائدة، أو العملية التي يتم بموجبها الإجابة على بعض الأسئلة أو حل بعض المشاكل أو معالجة موضوع واسع جداً أو معقد جداً يصعب التعامل معه بشكل كافٍ عن طريق نظام أو تخصّص واحد"[6].

وبشكل عام، اتفقت آراء الباحثين على ضرورة تضافر ميادين المعرفة ف**ميتو نيساني** جعل مفهوم البينية قائما على ضوابط هي: المناهج والمفاهيم والقيم والأهداف والمهارات والمعطيات[7]، أما **إدغار موران** في كتابه "ربط المعارف" فقد لخصه في قوله:" صنف تنظيمي يقوم في صميم المعرفة العلمية وتمارس في داخلها تقسيم العمل وتخصيصه ورغم وقوعه في كل أو مجموع علمي أكبر، إلا أنه يميل يشكل طبيعي نحو الاستقلالية، من خلال ترسيم حدوده واللغة التي يستخدمها والتقنيات التي يطورها[8]. كما ظهر مصطلح البينية أيضا عند الدارسين العرب كأمثال الدكتور **محمد همام** في كتابه "تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر

الإسلامي العربي" وكتاب الدكتور **صالح بن الهادي بن رمضان** في كتابه: "التفكير البيني أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها" إضافة إلى ندوات وتأليفات جماعية ومؤتمرات قدمت المصطلح للقارئ العربي.

كما أنّ الدراسات البينية لا تقتصر على صنف من العلوم دون آخر، بل يمكن اكتشافها، وتسخيرها بين كافة العلوم الإنسانية من جهة، وكافة العلوم الكونية من جهة أخرى، وكافة العلوم التطبيقية من جهة ثالثة. وتكمن أهميتها في كونها تبشر بمنهاجية جديدة تتضافر فيها كافة العلوم لخدمة الإنسان وتيسير استخلافه في الأرض، وتفعيل التسخير الرباني لما في السماوات وما في الأرض لمنفعة بني آدم ومصالحهم العاجلة والآجلة[9].

يمكن القول إنّ البينية مرحلة من مراحل تطور العلم تلت مرحلتي الموسوعية والتخصصية؛ فقد هيمنت النزعة الموسوعية قرونا عديدة وفي حضارات مختلفة، وتجلت، خاصة، في الحضارة العربية الإسلامية، حيث برز أعلام في مختلف الحواضر جمعوا بين المعرفة بالفلسفة والمنطق والعلوم اللغوية والأدبية والدينية والفلك والرياضيات والطب وعلوم الطبيعة وغيرها، وأنتجوا كتبا ورسائل علمية في تلك المجالات المتنوعة مع بروزهم وشهرتهم في هذا المجال أو ذاك أو مع اهتمامهم بعلم أكثر من غيره والأمثلة كثيرة، نكتفي بذكر الخوارزمي والرّازي وجابر بن حيان وابن سينا وابن هيثم والبيروني وابن طفيل وابن رشد.

إن هذه النظرة الموسوعية التي تواصلت فترة من الزمن مع النهضة الأوربية لم تنقطع انقطاعا فجائيا، ولا حدث التحول إلى التخصص بين يوم وليلة؛ فبوادر التحول في المجالين العربي والإسلامي والأوربي قد تجلت، شيئا فشيئا، بتأثير جملة من العوامل المألوفة في تاريخ العلوم يتصل بعضها بحركة العلم الداخلية ويتصل بعضها الآخر بالظروف المحيطة بها. ويمكن حصرها في:

- تراكم الإنتاج العلمي في هذا العلم أو ذاك.
- اتساع المعرفة واتجاهها إلى التعمق في الموضوعات المدروسة وتطور التفكير في المناهج المناسبة والاهتمام بالمنهج التجريبي.
- تطور المؤسسات التعليمية والمؤسسات الحاضنة للبحث ثم نشأة الجامعات الحديثة.
- ازدياد الحاجة الاجتماعية والاقتصادية إلى نتائج العلم وتطبيقاته كما في الطب والصيدلة والجراحة والفلاحة وعلوم التربة والنبات...[10].

2- تعالق الرواية مع التاريخ:

الكلام عن ثنائية الرواية والتاريخ يستدعي، بالضرورة، الحديث عن العلاقة بينهما. وهذا ما يثير نقاشا حادا حول من يقول الحقيقة النص التاريخي أم النص السردي. ولأنهما معا يصبان في بحر الحكاية، فإن العلاقة بينهما وطيدة، وبما أن "الرواية تتناول ظواهر اجتماعية، وكل ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة تاريخية كما يقول باختين، نستطيع القول بإمكانية اعتبار الرواية مصدرا غير تقليدي للتاريخ، لأنها هي الأقدر على التغلغل في طيات المجتمع وخبايا النفوس والأقدر على إنطاق المسكوت في الخطاب الثقافي والسياسي والاجتماعي العام"[11].

والتاريخ يلتقي مع الرواية في أن" كلا منهما خطاب لغوي وثانيتهما أن هذين الخطابين إيديولوجيان ضرورة. فإذا كان الروائي يمثل كونه التخيلي في ضوء قناعاته ورؤيته للكون فإن المؤرخ يعرض الوقائع الماضية لإبراز القيم الراهنة"[12]؛ فالخطاب الروائي، بذلك، يهتم بما أغفله التاريخ الرسمي الخاضع للسلطة؛ فمهما حاول المؤرخ ادعاء الموضوعية، إلا أننا لا نقرأ سوى تاريخ المنتصرين. وهنا، تؤدّي الرواية دورها في إظهار التاريخ غير الرسمي للبشر، ألا وهو تاريخ المستضعفين والمهمشين .

هذا التعالق ولد لنا الرواية التاريخية التي يعرفها لنا محمد القاضي بكونها "منطقة وسطى بين التاريخ والأدب اللذين يؤلف بينهما خطاب سردي إلا أن التاريخ خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الوقائع، في حين أن الأدب والرواية على وجه الخصوص، خطاب جمالي تقدم فيه الوظيفة الإنشائية على الوظيفة المرجعية"[13]؛ فهذان الفضاءان المختلفان الفضاء السردي التخيلي للرواية والفضاء المرجعي الواقعي للتاريخ يلتقيان في الحكاية نفسها رغم الاختلاف والتشابه بينهما. وهذا مكمن طرافتها كما قال أندري داسبر: "يبدع الروائي كونا خياليا روائيا يتكون في آنواحد من عناصر متخيلة متواشج معها فلا تعود المسألة منحصرة في استكناه الصلات بين عالم الرواية المتخيل والواقع، بل تشمل إلى ذلك الصلات القائمة بين الواقع والتخيل fiction في عالم الرواية الخيالي imaginaire)[14].

ليست الرواية التاريخية بالأمر الهين ولا السهل كتابته، بل إن استدعاء الماضي إلى زمن الحاضر يشكل وظيفة فنية ونقدية لمساءلة الحاضر والماضي، وهذه مسؤولية عظيمة أمام الكاتب والقارئ. لذلك، يقول جورج لوكاتش: "إن ما يهم في الرواية التاريخية ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث. وما يهم هو أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك في الواقع التاريخي"[15]؛ فالرواية التاريخية رغم فنيتها، إلا أنها "رواية

تثير الحاضر ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق بالذات"[16]، يأخذون منها العبر ويحققون من خلالها أغراضا حضارية حديثة؛ فالروائي يحاول التعبير عن الإنسان في ذلك العصر أو العصر الذي يعيش فيه الروائي، ولكنه لا يتخذ التاريخ ذريعةوشكلا مغايرا للحكي، إنما رؤيته لهذا التاريخ أو تجربة من تجاربه؛ فهو لا يقول الماضي بقدر ما يجسد مفارقات الواقع ويتطلع إلى المستقبل.

يوظف الروائي التاريخ في روايته بأربعة أشكال حسب جميل الحمداوي[17]، تتمثل في :

- رواية التوثيق التاريخي، مثل رواية "وزير غرناطة" لعبد الهادي بوطالب نموذجا.
- رواية التشويق الفني للتاريخ، مثل روايات جورجي زيدان.
- روايات التخييل التاريخي، مثل رواية "الزيني بركات" لجمال الغيطاني، و"ثلاثية غرناطة" لرضوى عاشور، و"مجنون الحكم" لبن سالم حميش وغيرها.
- الروايات ذات البعد التاريخي، وتتمثّل في كل الروايات العربية ذات الطرح التاريخي، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر روايات نجيب محفوظ.

3- البينية في أنماط الرواية التاريخية:

3-1- رواية التوثيق التاريخي:

يحرص الكاتب على الاستشهاد المباشر للنصوص التاريخية إما داخل السياق النصي، حيث "يرد النص التاريخي في النص الروائي أحيانا كما هو في المصادر التاريخية"[18]: أي يرد مكتوبا على هيئته محصورا بين قوسين أو مكتوبا بخط غليظ، وإما خارج السياق النصي. ويتوقف نجاح الطريقة الأولى على بث المادة التاريخية في مقدمة الرواية، أو في مقدمة الأجزاء والأقسام، أوفي الهوامش.

أما حضورها في مقدمة الرواية، فقد أصّلته رواية (التبر) لإبراهيم الكوني التي صدّرها "بنصين، أحدهما ديني، والثاني تاريخي منتزع من كتاب "مملكة مالي" لابن فضل الله العمري، وكما فعل منيف في "شرق المتوسط "أو "أرض السواد" ورواية سالم بن حميش (مجنون الحكم) التي صدّرها بجملة من أقوال المؤرخين، وكلها يصف الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي، الذي حكم مصر في القرن ا لرابع الهجري. كما تظهر الوثيقة التاريخية على مستوى مقدمات الأجزاء، وفي آخر الرواية يثبت هوامش[19]، "ليؤكد للقارئ أن السرد المتخيل يستند إلى حقائق تاريخية، الأمر الذي يذكّر بما صنعه رواد الرواية التاريخية، أمثال جرجي زيدان، ومعروف الأرناؤوط، وغيرهما، حين حرصوا على توثيق المعلومات التاريخية الموظفة في رواياتهم"[20].

أما الطريقة الثانية، فتتجسد في شكلين "أحدهما أن يرد النص التاريخي في السياق النصي على شكل بنية سردية مستقلة، محصورة بين قوسين صغيرين، وقد تجلى ذلك في رواية (رمل الماية – فاجعة الليلة السابعة بعد الألف) لواسيني الأعرج، وثانيهما تماهى النص التاريخي داخل النص الروائي كما هو الحال على سبيل المثال فيرواية هانئ الراهب (ألف ليلة وليلتان)، بحيث يصبح كلام الشخصية الروائية التي تسرد أحداث التاريخ، إما بوصفها شاهدة عليها، كما في رواية (رمل الماية)، حيث وردت أحداث التاريخ على لسان شخصيات تاريخية عايشت فترة الأحداث، وإما بوصفها شخصية مثقفة اطلعت على أحداث التاريخ، كما في رواية إميل حبيبي (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل)، حيث سرَدَ "المعلم" في حواره مع بطل الرواية، بشكل موجز، تاريخ مدينة عكا"[21].

3-2- رواية التشويق التاريخي:

لعل الممثل الأول لهذا النوع هو جورجي زيدان رائد الرواية التاريخية، حيث ألف إحدى وعشرين رواية تاريخية ضمن سلسلة تاريخ الإسلام، اعتمد فيها على المادة التاريخية بغية تشويق القارئ وما جاء به من خياله؛ إذ أطلق العنان لإبداعه بإضافة قصص غرامية لربط الأحداث التاريخية، ولكنها تعرضت للانتقاد من قبل النقاد، حيث كتب شوقي أبو خليل في كتابه "جورجي زيدان في الميزان": "لقد كتب جورجي زيدان ما اعتقده بعيدا كل البعد عن البحث المنهجي في كتابة التاريخ أو ما يسمى مصطلح التاريخ، واعتمد على ما كان ذائعا على ألسنة الوراقين، أو الكتب التي تلقي الأخبار على عواهنها من غير تمحيص أو تدقيق أيضا،...، ساعده على ذلك إمكاناته الجيدة في اللغة العربية، واللغات الأجنبية، وسعة خياله"[22].

3-3- رواية التخييل التاريخي:

إنّ التخييل التاريخي هو ذلك النوع السردي التخييلي الذي يتخذ من التاريخ وسيلة لبلوغ غاية جمالية؛ فهو ليس نسخا واسترجاعا لحقائق تاريخية، أو هو كما قال الناقد إبراهيم عبد الله: "المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد، وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية والوصفية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية ورمزية، فالتخييل التاريخي لا يحيل على حقائق الماضي، ولا يقررها ولا يروج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسرة لأحداثه، وهو من نتاج العلاقة المتفاعلة بين السرد المعزز بالخيال، والتاريخ المدعم بالوقائع، ولكنه تركيب ثالث مختلف عنهما"[23]. وخير من يمثل هذا النوع من السرد أمين معلوف في كتابه "بدايات" Les Désorientés، حيث تعود هذه الرواية إلى الأصول ممثّلة في الحروب الصليبية لحظة الانهيار، حين لم يحافظ الخلفاء الراشدون على إرث صلاح الدين؛ فانقسم العرب إلى دويلات وإمارات،

واشتد الحقد بينهم والصراع، كما يتتبع أمين معلوف تاريخ عائلته اللبنانية عبر العالم. وبذلك، تجمع رواية "بدايات" بين التخييل والحقيقة التاريخية، حيث يقوم البطل بمهمة البحث عن هذه العائلة عساه يصل إلى الحقيقة، كما يتسع الفضاء التخييلي لحركة الشخصيات التي اعتمدت على الخلفية التاريخية؛ فتتحاور هوياتها العرقية والدينية، وتنخرط في تفاعل إيجابي مع هويات أخرى.

3-4- الروايات ذات البعد التاريخي:

تنتمي كل الروايات العربية ذات الطرح التاريخي إلى هذا النمط السردي. "وعليه فروايات نجيب محفوظ باختلاف أنماطها النوعية والفكرية، تعبر عن تاريخ مصر منذ احتلال الإنجليز لها إلى قيام الحربين العالميتين وظهور ثورةسعد زغلول مرورا بالأزمة العالمية وسقوط الملكية ونجاح الثورة الناصرية... وتنقل لنا روايات عبد الكريم غلاب الروائي المغربي كذلك لحظات تاريخية عرفها المغرب منذ عهد الحجر على استقلاله وما بعد استقلاله[24]، وكما فعل الطاهر وطار في رواياته، وعبد الرحمن منيف وغائب طعمة فرمان من العراق والطيب صالح من السودان وغيرهم كثيرون.

4- حضور التاريخ في رواية الديوان الإسبرطي لعبد الوهاب عيساوي:

"الديوان الإسبرطي" رواية تاريخية حاصلة على الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) لعام 2020 في القائمة القصيرة، تلامس فترة تاريخية قلما تناولها الأدباء بأقلامهم، وهي أواخر فترة الحكم العثماني ودخول الاستعمار الفرنسي، تلك الحقبة المظلمة من 1815 إلى 1833. وتتكون الرواية من خمسة أجزاء، وتتخذ من العاصمة مسرحا لأحداثها، وتتناول موضوع سقوط العاصمة والتواجد الاستعماري في بلادنا. حملت رواية "الديوان الإسبرطي" رؤية فنية جمعت بين حقائق التاريخ وعناصر المتخيل الموضوعي لتحكي مأساة الجزائريين ومعاناتهم إبان حكمين جائرين.

تكمن أهمية الرواية في كونها رواية استطاعت الإجابة عن أسئلة قديمة مرهنة. وهذا هو ما أراده مؤلفها الذي رأى أن الكتابة عن الماضي في الحاضر هي محاولة لفهم الواقع. ولتحقيق ذلك، سلط الكاتب الضوء على أحوال خمسة سراد عايشوا زمن السقوط عن قرب، عن طريق تقنية التعدد الصوتي، حيث يتناوب على السرد خمسة أصوات؛ صوتان ينتميان إلى السرد الكولونيالي، وثلاثة أصوات تنتمي إلى السرد المقاوم.

الشخصيتان الفرنسيتان هما "ديبون" المراسل الصحفي للحملة الفرنسية على الجزائر، والضابط "كافيار" البونابرتي الحاقد على الأتراك وعلى الجزائريين. أما الشخصيات الجزائرية

فتتمثل في الوجيه الموالي للأتراك "ابن ميار"، والشاب الثائر على النظامين العثماني والفرنسي على حد سواء "حمة السلاوي"، والمومس "دوجة" الباحثة عن هويتها المفقودة.

تعدّ هذه الرواية من أهم أعمال الكاتب عبد الوهاب عيساوي، وقد نشرت سنة 2018 في الجزائر، حيث حاول استدعاء التاريخ وتوظيفه، بوصف العالم الذي تدور فيه أحداث الرواية بين الجزائر وفرنسا. وفي هذه الرواية، لم يكن التاريخ هاجسه، بل حاول قول ما لم يقله التاريخ، كما حاول فنيا تقريب المسافة بين السرد التاريخي والسرد الروائي، والاستشهاد بالوثائق التاريخية الكثيرة التي جمعها للكشف عن خبايا التاريخ، وإظهار فظاعة الاستعمار الذي تفنن في التنكيل بالشعب الجزائري وهول الحروب.

إن ما يميّز "رواية عبد الوهاب عيساوي عن أعمال سابقيه الجزائريين الذين وظفوا التاريخ كوسيلة وأداة لغايات متعددة، هو أن التخييل لديه قد وظف كل الجوانب الفنية والتوثيقية والفكرية في هذا السرد، كوسائل ولواحق مكرسة حصرا لاستهداف التاريخ وتخييله في الرواية، وهذا هو الأصل في بنية الرواية التاريخية التي لا توظف التاريخ من أجل غرض خارج عن مداره، وإنما تقوم بتسريد كل شيء في العالم غير الروائي من أجل تخييل التاريخ روائيا"[25].

لقد اعتمدت الرواية على الوثائق التاريخية كما قلنا سابقا. ورغم ذلك، لم نشعر بتلك الفجوات بين ما هو تاريخي وما هو فني، نظرا لتلك الحوارية والتعالق فيما بينهما؛ "فهذه المادة التاريخية الموثقة لما استعملها الكاتب في الرواية قد انتقلت من مستوى الوثيقة بالمعنى التاريخي إلى مستوى النص السرد الروائي الذي يساعد التخييل على خلقتصورات جمالية يقترب بها القارئ من الزمان والمكان، بل يجد لتخييله وجودا وكيانا واقعيا، ثم الذهاب بعيدا وراء الأحداث السياسية والاجتماعية وغيرها، لمحاولة فهم وتمثل الواقع المعقد في تمظهراته الحميمية والعميقة جدا"[26].

4-1- اليوميات:

استعان الروائي بيوميات مراسل لحملة 1830 التي نشرت في جريدة "لوسيمافور دو مرساي" Le Sémaphore de Marseille . وقد صرح بأنه تصرف فيها؛ فقد عنون يوميات المراسل في القسم الثاني بـ "يوميات مراسل لحملة 1830: نشرت في "لوسيمافور دو مرساي" بتصرف". كما نجد اليوميات في القسم الثالث والرابع من الرواية.

واليوميات هي "تسجيل مباشر للتجربة لا يغيره تأمل لاحق"[27]؛ فهي، بذلك، تمتاز بالقدرة على تسجيل المواقف لحظة بلحظة ومتابعتها بدقة، كما تحافظ على ذاكرة الشخص الذي دون

يومياته من الضياع بكل ما تحتويه من مشاعر وعواطف. "إن كتابة اليوميات تضمن الوجود الواقعي للحياة التي نحياها، فوجودها هنا على الورق يعني أنها قد حدثت ولم تكن مجرد حلم"[28].

هذه اليوميات توثق مراحل الحملة الفرنسية على الجزائر؛ ففي القسم الثاني من الرواية، يذكر ديبون أحداث ما قبل الحملة، والاستعدادات العسكرية في مدينة طولون والمسحة الدينية التي اعترت الحملة والتي شجعت ديبون على تغطيتها كمراسل ليرى أنوار المسيحية وهي تضيء إفريقية وتنقذ الجزائر من قبضة القراصنة الأتراك.

أما في القسم الثالث، فيصف لنا ديبون أجواء الحملة في البحر وتوجه الأسطول الضخم نحو الجزائر. وفي القسم الرابع، تظهر النوايا الحقيقية لهذه الحملة الشرسة على الجزائر، حيث أريقت دماء وهدمت صوامع وجوامع. يقول ديبون في يومياته :"أشق شوارع المدينة، أرى الشيوخ يفترشون الأرض، ينظرون إلى جنودنا الراكضين، والأطفال يصرخون في أحضان أمهاتهم، والرجال نكسوا رؤوسهم. أين فرحة المسيح ونوره الذي آمنت به، يوم رحيلي عن مرسيليا مثل حاج يهدف إلى أورشليم؟ أو مثل حواري يغادر المدينة يخبئ الوصايا تحت ثيابه"[29].

4-3- الرسائل:

يبدأ كافيار السرد في القسم الأول من الرواية برسالة إلى ديبون من بين الرسائل الكثيرة التي بعثها له أو بقيت حبيسة الأدراج تردد في بعثها نظرا لاختلاف الإيديولوجيات بينهما، يشرح فيها سبب كرهه للأتراك والمور: "يصر ديبون على الدفاع عن هؤلاء، مثلما يلجأ إلى مسيحه الشخصي ليحاججني. أيها البائس: حتى البابا نفسه لم يعد يؤمن بالمسيح الذي تؤمن به، من أجل سلطة المال تحولت الأديان إلى أقنعة. هؤلاء الأتراك المحمديون كانوا يأخذون أموالنا ثم يستعبدوننا، هذا إن لم نقتل، ثم يقولون إن الله يأمرهم بذلك، هذا هو الرب الذي صار الجميع يؤمن به في أوروبا وإفريقية"[30].

4-4 التوثيق عبر الجرائد:

وظف عبد الوهاب عيساوي مقالا من جريدة "لوسيمافور دو مرساي" عام 1833 بعنوان "المتاجرة في العظام البشرية"، يؤرخ لحادثة فظيعة تمثلت في متاجرة البحارة الفرنسيين في العظام البشرية للجزائريين ونقلها إلى فرنسالتطحن ويتم بمسحوقها تبييض السكر، وقد نقلت عبر سفينة "بون جوزيفين"، وقد أدّى المالطيون دور الوسيط بين التجار الفرنسيين ومصانع تبييض السكر في مرسيليا.

كانت هذه الحادثة المروعة من أفظع ما قامت به فرنسا. وقد بدأ بها عيساوي روايته ليجلب انتباه القراء إلى الرواية ويوهمهم بواقعية الرواية. يقول السارد ديبون في حوار له مع الطبيب الذي عاين العظام البشرية: "تأملني الطبيب مليا ثم قال:

- يقال إن الباخرة تحمل عظاما بشرية؟
- أهي لجنود أوصوا بذلك؟
- لا، بل لمصانع السكر. يقال إنها تستعمل لتبييضه.
- ذهلت وأنا أسمع كلماته:
- أتعي ما تقوله سيدي الطبيب؟
- أنا هنا من أجل هذا، ما عليك إلا مرافقتي إلى الميناء"[31].

يصف ديبون الصحفي أثر مقالته بعد نشرها؛ فيقول:

"في اليوم الثاني خمنت أن هناك ضجيجا سينبعث بعد قراءة المقال، تناولت الجريدة من أول الأكشاك ورأيت العنوان بحجمه الكبير في الصفحة الأولى، وكان الناس من حولي يتهافتون على النسخ حتى لم تبق ثمة واحدة وكل من يفرغ منه يسير مسرعا باتجاه الميناء"[32].

4-5- توظيف وثيقة استسلام الجزائر العاصمة (معاهدة دي بورمون):

معاهدة دي بورمون هي معاهدة تمت بين الداي حسين والماريشالبورمون قائد القوات الفرنسية، وكانت تتضمن السيطرة على الجزائر، مع ضمان أملاك المواطنين واحترام دينهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتمكين الداي حسين من مغادرة الجزائر مع أملاكه وحاشيته.

وقد ذكر الكاتب وثيقة الاستسلام في يوميات بن ميار: "طوى الوثيقة بين يديه، وسلمها للكاتب الذي بسطها أمامه، بدا أن القائد كان راضيا عما جاء فيها،... وفعلا لم تمض إلا دقائق حتى نودي علينا، وطلب القائد بأن يجتمع بالباشا في اليوم الثاني ليوقعا المعاهدة رسميا"[33].

يصور لنا الكاتب مشهد استسلام الداي حسين أمام القائد بورمون، وهو يتلو عليه بنود المعاهدة على لسان ابن ميار: "وقفت أمام الباشا، على يميني الخزناجي وعلى يساري ميمون، وسمعنا كلماته وهو يفضي بشروط استسلامنا. ربما لو كان السلاوي حاضرا لقال: شروط الاستسلام يحفظها العثمانيون منذ اغتصبوا المدينة قبل ثلاثة قرون. بالتأكيد لم أكن لأوافقه، يظل الباشا حسين رجلا مختلفا، رغم أخطائه التي ارتكبها، ولكنه كان يقاسمنا حب هذه المدينة. كان حفظ أنفسنا وأموالنا ومساجدنا، أحد شروط المعاهدة، بينما تسلم القصبة، ويختار الباشا مكانا يرحل إليه بأهله وأمواله، ويظل بقايا الجنود اليولداش في المدينة مثلما كانوا دائما"[34]. "في اليوم التالي لم أرافق الباشا، بل انتظرتعودته عند باب قصره مع بقية

أعضاء الديوان، ورأيته يقترب حزينا منكسرا لم تفارق نظرة التسليم وجهه، أدرك أن كل شيء قد انتهى بعد استسلام المحروسة، ومضى إلى بيته، ولم أره بعدها"[35].

خاتمة:

ومجمل القول إن:

- الدراسات البينية تجمع بين تخصصين أو أكثر لحل مشكلة بحثية عن طريق التكامل بينها للوصول إلى فهم حقل معرفي متكامل؛ فهي تؤمن بالتكامل المعرفي بين العلوم الكونية والتقنية.

- جاءت الدراسات البينية لتجسير الفجوة بين العلوم بعد أن تشعبت وتشظت، ولخدمة الإنسان وتيسير استخلافه على الأرض.

- الرواية نوع أدبي لا شكل له، حيث تتمظهر البينية في توظيفها لكل الأنواع الأدبية والخارج أدبية، وخاصة التاريخ، حيث يتعالق مع الرواية مشكلا الرواية التاريخية.

- تتجلى البينية في الرواية التاريخية من خلال أنماطها:

- رواية التوثيق التاريخي التي ترتضي التاريخ على حساب الرواية.
- رواية التشويق الفني للتاريخ؛ فتحقق المتعة من خلال المزج بين التاريخ والخيال.
- روايات التخييل التاريخي، حيث الخيال هو حجر الأساس، وهو ذو وظيفة جمالية ورمزية.
- الروايات ذات البعد التاريخي؛ أي كل الروايات ذات الطرح التاريخي.

- زاوج الروائي عبد الوهاب عيساوي بين التوثيق التاريخي والخيال الفني. وقد وفق في ذلك حيث استدعى معلومات خارجية ووثائق في غاية الدقة، وبصورة مكثفة للكشف عن أسباب الاحتلال الفرنسي للجزائر.

- تنتمي رواية "الديوان الإسبرطي" إلى نمط الرواية التاريخية ذات التخييل التاريخي.

ومن جملة الاقتراحات إزاء موضوع البينية التي تنفتح على الإنتاجات البشرية كلّها، دعوة الأدباء إلى استخدام كل قدراتهم التخييلية والفكرية لإغناء الرواية، لأن البينية تسهل عملية العبور بين المجالات المختلفة، ولكن في إطار أخلاقي، يدعو إلى الحوار واحترام الآخر.

الهوامش:

[1]- روجر ألن، الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية، تر حصة منيف، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ط1 1986، ص10.

[2]-- عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، 1998، ص11

[3]- المرجع نفسه، ص ن.

[4]- المرجع نفسه، ص15.

[5]- المرجع نفسه، ص 32

[6]- أمين عمار ين عبد المنعم، الدراسات البينية رؤية لتطوير التعليم الجامعية، الندوة السعودية الأولى لعلوم الأرض، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 2012، ص 2.

[7]-M. Nissani ; fruits, salads ,and smoothies : a Working Definition of Interdiciplinary, p01 .

نقلا عن رجاء بهلول، حول مفهوم عبور التخصصات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسة، الدوحة، قطر، ص 4.

[8]- Edgar Morin, Sur L'interdisciplinarité, RencontresTransdisciplinaires, Bulletin interactif du centre international de recherches et étudestransdisciplinaires (ciret),n 2, juin, 1994.

[9]- ينظر: محمد صالحين، دراسات البينية تفتح آفاقا جديدة في البحث العلمي islamonline.net 8/4/2019

[10]- نور الدين بن خوذ، دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها، ص 6.

[11]- زياد الأحمد، العلاقة بين الرواية والتاريخ، مجلة الجديد العدد60، يناير 2020، ص 8.

[12]- محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسات في التخييل المرجعي، دار المعرفة للنشر، تونس، ط1، 2008، ص 25.

[13]- المرجع نفسه، ص 25، 26.

[14] -André D'aspre ; roman historique et histoire. Revue d'histoirelittéraire de la France-Mai-juin1975.p.235.

[15]- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد كاظم، وزارة الثقافة والإعلام دار الشؤون الثقافية العامة العراق، بغدا، ط2، 1986، ص 46

[16]- المرجع نفسه، ص 89

[17]- جميل حمداوي، الرواية العربية ذات البعد التاريخي، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم، www.arabicnadwa.com.

[18]- محمد رياض وتار ، توظيف التراث في الرواية العربية، ص 106.

[19]- المرجع نفسه، ص108.

[20]- ينظر: المرجع نفسه' ص 105

[21]- الخامسة علاوي، التاريخ وأدبيات التجريب في الرواية الجزائرية حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر أنموذجا ، الملتقى الدولي السادس في تحليل الخطاب يومي 26 إلى 27 فيفري2013 جامعة منتوري قسنطينة. https://manifest.univ-ouargla.dz/archives

[22]- شوقي أبو خليل ، جورجي زيدان في الميزان ، دار الفكر سورية دمشق، 1981،ص 8.

[23]- عبد الله ابراهيم، السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت.

[24]- جميل حمداوي، الرواية العربية ذات البعد التاريخي، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم، www.arabicnadwa.com

[25]- محمد الأمين بحري، انتصار التخييل وانهزام الواقع، مجلة الجديد، العدد 60، ص 56.

[26]- أحمد أبو حسن، الرواية والتاريخ، https://ribatalkoutoub.com/?p=2408

[27]-والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، 1998 ص 97.

[28]- ميري ورنوك، الذاكرة في الفلسفة والأدب، تر: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، 2007، ص162.

[29]- عبد الوهاب عيساوي، الديوان الإسبرطي، دار ميم للنشر، الجزائر، 2019، ص 260.

[30]- الرواية، ص 40.

[31]- الرواية، ص 16.

[32]- الرواية، ص 23،24.

[33]- الرواية، ص 212.

[34]- الرواية، ص 211.

[35]- الرواية، ص 212.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب:

- شوقي أبو خليل، جورجي زيدان في الميزان، دار الفكر سورية دمشق، 1981.

- عبد الله ابراهيم، السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 2011.
- نور الدين بن خوذ، دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، مركز دراسات اللغة العربية وآدابها.
- أمين عمار ين عبد المنعم، الدراسات البينية رؤية لتطوير التعليم الجامعية، الندوة السعودية الأولى لعلوم الأرض، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 2012.
- عبد المالك مرتاض، نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، 1998.

المجلات:

- زياد أحمد، العلاقة بين الرواية والتاريخ، مجلة الجديد العدد60، يناير 2020.
- محمد الأمين بحري، انتصار التخييل وانهزام الواقع، مجلة الجديد، العدد 60.
- الخامسة علاوي، التاريخ وأدبيات التجريب في الرواية الجزائرية حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر أنموذجا، الملتقى الدولي السادس في تحليل الخطاب يومي 26 إلى 27 فيفري2013، جامعة منتوري قسنطينة..

المواقع الإلكترونية:

- محمد صالحين، دراسات البينية تفتح آفاقا جديدة في البحث العلمي islamonline.net 8/4/2019
- جميل حمداوي، الرواية العربية ذات البعد التاريخي، مجلة ندوة الإلكترونية للشعر المترجم، www.arabicnadwa.com
- أحمد أبو حسن، الرواية والتاريخ، https://ribatalkoutoub.com/?p=2408
- الخامسة علاوي، التاريخ وأدبيات التجريب في الرواية الجزائرية حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر أنموذجا، الملتقى الدولي السادس في تحليل الخطاب يومي 26 إلى 27 فيفري2013، جامعة منتوري قسنطينة. https://manifest.univ-ouargla.dz/archives/

الكتب الأجنبية والمترجمة:

- André D'aspre ; roman historique et histoire. Revue d'histoirelittéraire de la France-Mai-juin1975.p.235

- روجر ألن، الرواية العربية مقدمة تاريخية ونقدية، تر حصة منيف، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، ط1 1986
- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد كاظم، وزارة الثقافة والإعلام دار الشؤون الثقافية العامة العراق، بغداد، ط2، 1986.
- والاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، 1998.